

الدولة الزييرية (362_543هـ/972_1148م)

تمهيد: يرجع نسب بني زيري إلى قبيلة صنهاجة البربرية؛ التي تنتمي إلى فرع من البرانس، ولم تكن صنهاجة مجرد قبيلة؛ بل كانت شعباً عظيماً، لا يكاد يخلو قطر من أقطار المغرب من بطونه وأفراده، مما دفع ابن خلدون إلى القول بأنهم يمثلون ثلث البربر¹، وقد سكنت صنهاجة في مساحات شاسعة؛ امتدت من جنوب المغرب الأقصى إلى القيروان بإفريقية، وهي منطقة صحراوية، آثروا السكنة فيها على غيرها من المدن الآهلة، وظهرت أسرة بني زيري -في أول أمرها- في طاعة الفاطميين، وتعاونت معهم في صد الأخطار التي تعرضت لها دولتهم ببلاد المغرب، وكان أول اتصال بينهما في عهد المنصور الفاطمي، حين قدم زيري بن مناد وأهل بيته وقبيلته لمحاربة أبي يزيد الخارجي في سنة (335هـ / 946م)، فخلع عليه المنصور، ووصله، وعقد له على أهل بيته وأتباعه وقبيلته، فعظم شأنه، وصار بنو زيري أعواناً وأتباعاً للفاطميين، ومن ثم نشب الصراع بين الصنهاجيين، وقبائل زناتة، لأن زناتة كانت دائماً الإغارة على ممتلكات الدولة الفاطمية.

1- نظرة عامة حول تأسيس دولة بني زيري في إفريقية:

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمي إلة مصر سنة 362هـ/972م بأهل بيته وكبار قواده وجنوده، لم يعد إهتمامه بإفريقية على ما كان عليه سابقاً، غير أنه أراد أن تكون تابعة له عن طريق تقديم الولاء التام للخلافة الفاطمية² وتقول الروايات التي بين أيدينا أن المعز قبل رحيله إلى مصر عرض على بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وكان من أكبر رجال صنهاجة أن يتولى أمر إفريقية ويكون تابعا للفاطميين في مصر، فقبل هذا الأخير بشروط المعز والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي، وعلى هذا أصدر المعز له عهداً بولاية إفريقية وسماه يوسف، ولقبه أبو الفتوح ويقول ابن عذاري وابن خلدون وابن الخطيب أنه أوصاه وصية قال له فيها: "إذا نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية على أهل البادية، ولا ترفع السيف على البربر، ولا تول أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالخير خيراً"³، غير أن بعض

1 ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، نشر خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، ص201.

2 يوسف علي بدوي، عصر الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط، دار الأصال، الجزائر، ط1، 2010، ص110.

3 ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، نشر خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، ص206.

المؤرخين يرون أن هذه القصة غير حقيقة بحكم أن أمير أو والي بني زيري هو نفسه بربري لا يمكن أن يوصيه وصية تسيئ إلى البربر.

2- توسع دولة بني زيري وأهم حكامها:

لأول مرة في التاريخ أصبح رجل من أهل المغرب رئيس دولة إسلامية مستقلة في المغرب الإسلامي، وأصبحت هناك أسرة بربرية مستعربة تتولى شؤون إفريقية وتتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط، وخلال ما يناهز نصف القرن ما بين سنة 361_406هـ/972_1016م تولى الحكم ملوك بني زيري الثلاثة الأوائل: بلكين بن زيري بم مناد (361_373هـ/972_984م)، والمنصور بن يوسف بن زيري (373_386هـ/984_996م)، ونصير الدولة باديس بن أبي الفتوح المنصور (386_406هـ/996_1015م)، وقد حكم الأول والثاني حوالي عشر سنوات وحكم الثالث حوالي عشرين سنة، واجتهدوا في مواصلة تثبيت دعائم الدولة الفتية على نحو لافت للنظر، محاولين إيجاد الحلول الملائمة للمشاكل الجوهرية التي تعترض سبيلهم.

وقد حرص بلكين رئيس صنهاجة وملك أشير على وجه الخصوص، باعتباره الخادم الأمين للخليفة الفاطمي على نصرته القضية الفاطمية ضد الزناتيين المواليين للأمويين في المغرب الأقصى، حيث قام بعمليات حرب متتالية، فقد اندفع بلكين نحو المغرب الأوسط الذي هجره الكتاميون محاولاً تحقيق التوسع الذي كان يحلم به أسياده في السابق وإشفاء غليل حقد قديم مرتكز على النزاع القائم بين البدو الرحل والحضر⁴، وكان أول مظاهر هذا الصراع هو انتفاضة الزناتيين في تاهرت بعدما وجدوا الدعم الأموي من الأندلس، فسار إليهم بلكين وأخضعهم دون أن يتوغل في المغرب الأقصى، ففي سنة 367هـ/978م أضاف المعز إلى ولاية بلكين طرابلس، وسرت، وأجدابية حتى أصبحت مملكته تتسع إلى حدود برقة.

3- انفصال دولة بني زيري عن الدولة الفاطمية:

تولى المعز بن باديس الزيري بعد وفاة أبيه سنة 406هـ/1115م وهو في سن الثامنة من عمره، وقد سير الدولة آنذاك أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد ولقد واجهت الحاكم الجديد بعض العراقيل والمشاكل الداخلية ومنها رغبته في القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد، وخاض معهم حروبا طويلة انتصر فيها رجال المعز، وعندما تأكد لبني حماد أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلا أمام قوة الدولة الزيرية، تقدم حماد بطلب الصلح على أساس أن يكون تابعا للقيروان وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط، وتم الصلح في صفر 408هـ/1017م. لقد شهدت الدولة الفاطمية بعد انتقالهم إلى مصر ظروفًا صعبة، حالت بينهم وبين إحكام قبضتهم على إفريقية، وأصبحت تبعية الدولة الزيرية لهم مسألة خارجة عن نطاقهم، فقد غرقوا في شؤون مصر ومشاكلها، حيث وجدوا

4 حادي الساحلي، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص73.

مصر بلدا شاسعا وأغنى بكثير مما كانوا يتوقعون، فغالبية سكانها لم يكونوا نصارى مثلما كان الحال في عهد الدولة الطولونية، بل كانوا مسلمين مستعربين أو عرب وكانت لهم أدوار متزايدة في عالم الإسلام⁵، كما أن المجاعات الفظيعة والنزاعات الدامية بين المرتزقة الأتراك والمغاربة السود زادت الوضع تأزما وفتحت بابا آخر على الخلافة الفاطمية صده⁶، وعلى هذا الأساس كان على المعز وخلفائه أن يركزوا جل اهتمامهم على مصر، وفي نفس الفترة أخذ استقلال بني زيري في إفريقية والمغرب الأوسط يتحول إلى حقيقة تاريخية على الفاطميين استساغتها فقط، ولم يعد من الممكن أن تعود الدولة الزيرية إلى التبعية للمشرق.

لقد تمكن المعز بن باديس سنة 440هـ/1048م من الاستقلال عن الدولة الفاطمية وإلغاء المذهب الشيعي من دولته، وأعلن في عاصمته لقيروان عودة المذهب السني المالكي، ورحب سكانها بذلك ترحيبا شديدا، حتى قامت فيها ثورة على لمن كان شيعيا، وعلى إثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه عهدا بتوليته على إفريقية والمغرب، فأرسل إليه الخليفة رايات سودا وخلعا سودا وعهدا بالولاية، وهكذا انفصلت دولة بني زيري وبلاد إفريقية والمغرب عن مصر والمشرق⁷.

4- دخول العرب الهلالية بلاد المغرب وسقوط الدولة الزيرية:

عرب بنو هلال وبنو سليم والأثنج الذين نتحدث عنهم يدخلون فيمن يسميهم ابن خلدون بعرب الجيل الرابع، أو العرب المستعجمة الذين فقدوا خلق العرب الأول⁸، ولم يعد لهم من القوة أو القدرة وسلامة العنصر، وفقدوا فصاحة العرب وسلامة اللغة، وكانت العرب الهلالية قد اضمّت إلى حركة القرامطة التي تصدى لها المعز لدين الله الفاطمي، وبعد تغلبه عليهم استقرت بنو هلال وبنو سليم في ريف مصر، غير أن أذاهم المستمر وهمجيتهم دفعت المستنصر الفاطمي إقطاعهم بلاد إفريقية والمغرب من أجل القضاء على الدولة الزيرية والمذهب السنين، فسار قسم منهم إلى برقة وخرّبوا مدنها وامتد تخريبهم إلى أجداية وطرابلس وفران، وقسم منهم ساروا إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يملكون على شيء إلا أتوا عليه⁹، ومع كل المحاولات التي قام بها المعز بن باديس لإنقاذ عاصمته ودولته من السقوط إلى أن هجمية عرب بنو هلال كانت أقوى وأعنف، ما دفعه إلى الانسحاب إلى المهديّة التي بناها

5 يوسف علي بدوي، المرجع السابق، ص118.

6 حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص212.

7 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان، ليفي برونفيلد، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط3، 1983، ج1، صص273-274.

8 ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، نشر خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، صص3-4.

9 ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، صص18-22.

الفاطميون شمال سوسة، وبعد أن عثت العرب الهلالية الخراب في المدن السالفة الذكر توجهوا إلى المهديّة وقبضوا على المعز وقضى سنواته الأخيرة في السجن إلى أن توفي سنة 454هـ/1036م¹⁰.

خلاصة: لقد أثرت نزعة الانفصال التي تزعمها بنو حماد بالمغرب الأوسط ضد بني زيري أبناء عمومتهم بإفريقية، وبعد أن تم الصلح بينهما سنة 408هـ/1017م على الاستقلال المحلي لدولة بني حماد بالمغرب الأوسط، أصبحت أشير العاصمة الفعلية لبني حماد ثم بجاية بعد ذلك، غير أنه قد انفتح باب آخر على دولة بني زيري تمثل في الخطر النورماندي الصليبي، الذين استولوا على صقلية سنة 464هـ/1071م كبداية للتوسع في دولة بني زيري، وقد تمكنوا من إسقاط دولة بني زيري بعد استيلائهم على المهديّة سنة 452هـ/1148م.

10 يوسف علي بدوي، المرجع السابق، صص 121-126.